القراءة الثامنة :

اطلالة على شعر
« نورالدين السالمي »

إعداد / سالم بن علي بن سالم الكلباني

إنه لأمر غير عادي أن يكون الشيخ الضرير عبد الله بن حميد السالمي علماً بارزاً من أعلام الفقه والشريعة في زمن طمس فيه الجهل على بصائر آلاف المبصرين وأن يكون علماً من أعلام الحل والعقد في زمن كان الآلاف من الأصحاء الأسوياء الأقوياء لايجدون لهم موطىء قدم في معركة التنافس الشرس على الهيمنة والتسلط بشتى ذرائع هذا التنافس ومبرراته.

ولقد تمنيت أن يدور حديثي عن هذا العلم البارز حول جانب غير الشعر من جوانب شخصيته المتميزة التي فرضت على المجتمع أن يحترمها كل الإحترم وأن يقدرها كل التقدير. إلا أن انتسابي إلى جماعة الشعر والشعراء هو الذي دفعنى الى تناول هذا الجانب الذي كنت ولا أزال أرى أنه أقل جوانب هذه الشخصية بروزاً اذا ما قيست بعبقريتها الفذة التي تتجلى في كثير من المعارف الأخرى.

لقد كان الحصول على مصادر شعر الشيخ ليس بالسهولة المتوخاة وخاصة ما يتناول من الشعر المعنى البديع واللفظ السهل والأسلوب الجميل. وقد وفقني الله في الحصول على عدد من قصائده تنصب مُعظمها في معظمها في مجالين أو ثلاثة مجالات لاتكاد تعدوها إلا نادراً، وكثير من هذه القصائد يحتوي على رثاء لأشخاص معينين يلوح لي أنه كان لهم أثر كبير في حياة الشيخ ومنهجه فمدحهم أحياء ورثاهم أمواتاً وهكذا عرفنا أوفياء الرجال.

لقد كانت حياة السالمي ملأى بالأحداث الجسام التي كان كل منها يحدث لديه أثراً نفسياً بالغاً أو هزة عصبية عنيفة فكان لكل فعل تفعله هذه الأحداث ردة فعل لدى شعوره المتحفز الذي لم يكن من السهل عليه أن يتقبل كل شيء على علاته. وربما كان المجتمع الذي عايشه لايفي بجميع آماله الطامحة نحو حياة قويمة مهما كانت الظروف والأسباب الأمر الذي بعث فيه احساساً حفزه في الكثير من قصائده الى شحذ الهمم واستنهاض أبناء الأمة ولهذا السبب نعزو انشاء معظم قصائده التي نحن بصدد الحديث عنها إذ إنك قلما تقرأ له قصيدة إلا واجهك لوم البعض لتقصيرهم ونكولهم عما يرى الشيخ أنه واجب عليهم لايمكن التفريط فيه بأي حال من الأحوال حتى يبلغ به الأمر مبلغاً يقول فيه وبمرارة:

إن للغايات كلا ينتهي هل لحال العجز منا منتهى

لقد عاش السالمي في عصر تزاحم فيه الفحول من العلماء والشعراء على امتلاك ناصية البلاغة فنبغ منهم ولمع العشرات من أرباب البيان وفطاحل العلم الذين لايتسع مجال حديثنا هنا لذكرهم جميعاً واذا جاز لنا أن نختص منهم قلة قليلة ممن كان للشعر نصيب من عبقرياتهم الفذة فان ممن عاصره ابن عمه الشاعر محمد بن شيخان السالمي والعلامة محمد بن سالم بن زاهر الرقيشي والعلامة سيف بن حمد الأغبري، والشيخ عبدالله بن سعيد بن خلفان الخليلي. وأبو سلام سليمان بن سعيد بن ناصر الكندي وأبو وسيم خميس بن سليم الأزكوي وأبو صخر سيف بن يعرب بن قحطان البوسعيدي. وأبو مسلم البهلاني الرواحي الذي رثى السالمي بأشعار قال في بعضها:

ما فقدناك وعرفانك في صفحات الكون ضوء يشتعل
إن رب العلم حي خالد ولو أن الذات بالموت انتقل
ماتركت الكون حتى تركت خطة الحمد لك الحمد الجلل

هـؤلاء قلة من كثـرة العلماء الـذين عاصروه ممن كـانـوا يقرضـون الشعر عـدا العلماء الفطاحل الـذين لم يكن لهم احتفـال بالقريـض وقد أوردنا هذه الأسماء للدلالة على أنه لم يكتسب شـهرته وذيوع صيته من فـراغ بل اكتسب هـذه الشهرة بما وهبـه الله من همة عـالية أهلتـه لأن يكون العـالم الضليع بتحمل مسئـوليته العلميـة الجليلة. لقد عـرف عن البعض من الشعراء وكما قال فيهـم رب العزة أنهم (في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مـا لا يفعلون) بيد أننا وغير جاحـدين لقول الله عز وجل نرى أن الشيخ ليس من الفئة الموسومـة بهذه السمة بل هو والعلم عند الله من الذين آمنوا وعملـوا الصالحات ذلك لأن معظم قصائده التى بين أيدينـا تعدو كونها حثاً على فضيلـة أو نهياً عن رذيلة لما فطـر عليه من الاستقامة والتمسك بمكارم الأخلاق، فلنستمع اليه قائلا :

أبـت إلا المروءات الأبيـــــة نفـوس لاتقـر على الـدنيـه
علت شرفـــاً وفلت كـل خطب بأحســـاب وهمات عليـــه
وقـابلت المصـائب بـاحتسـاب فخفف صبرهـا ثقل الـرزيـه

هذا هو أسلوبه ومنهجه. ولئن كان الشاعر العربي الكبير ابن الرومي في نوبة من نوبات نقمته وسخطه قد شط على الشعراء فقال متهما اياهم بالتزييف والدجل:

يقـولـون ما لايفعلـون مسبـة من الله مسبـوب بها الشعـراء
وما ذاك فيهم وحـده بل زيادة يقـولـون مـا لا يفعل الأمـراء

فـان أمراً مثل هـذا حـاشاه أن ينـدرج على السـالمي حيث اننا نجلـه ونكبره عن أن يكون مـديحه ستجداء أو تملقـاً وانما هو رد للجميل من ناحية أولى، ومن نـاحية أخرى محاولة منه لاستقطاب القـوى الفاعلة في المجتمع لكي تتعاون معه على تقويـم السلوك لدى من يعتقد الشيخ انهم بحاجة الى تقويم ، يبرر هذا الرأي قوله:

خفف العـذل عـن محب تصـامم ... ان بـدا حـادث عظيم تعـاظم
ولـه في الـوغـى طـرائق صـدق ... قـام ان قـامت الحروب وصـادم
ولـه في العـلا منـازل حـق ... شيـدت ركنهـا القنـا والصـوارم
ولـه في الـورى نصـائح ود ... ود أن لايكـون في النـاس ظـالم
ولـه في النـدى سحـائب عـرف ... تمطـر الجود للـورى والمغـانم
ولـه في العـدا صـواعق حتف ... تمحق الكفـر منهم والمظـالم
وتقي القـوم نفسـه كل سـوء ... ويـرى أن ذاك في المجـد لازم
نطقـت سـيرة الأوائـل طـراً ... عن طـريق العـلا لمن كـان قـائم
لم أجـد للعـلا طـريقـاً قـريبـاً ... مثل طعن اللهى وحـز الغـلاصم
قـد تفكـرت في عـواقب أمـري ... فـرأيت النجـا ارتكـاب العظـائم
كيف يرجو الحسـان في الخلد قوم ... ألفـوا الـذل بين غيـد نـواعم
تـركـوا الـدين دارسـاً والمعـالي ... عـاطـلات وضيعـوا كل لازم

الى أن يصل هدفه المنشود الإفصاح عنه فيفصح قائلاً:

أنا عبد أحـرض الناس والله تعالى ... أرجـو لحسن الخـواتم

هكذا يـوضح لنا غـايته التي يحرض النـاس عليها تحريضـاً مباشراً لايعرف التلميح أو الرمز أو التوريـة وذلك هو ما تقتضيه بيئة المجتمع الذي تـربى فيه وعايشه هـو مجتمع عربي قح تستثير الدعـوة المباشرة حميته وتلهب مشـاعره، ونـراه أحيانـاً وقد ألزم نفسـه ببعض المواقف التي لايرى محيداً عنهـا ومن ذلك قوله مدافعاً عن مـوقفه مبرراً وجهة نظره:

يـدعونني للعجـز عن طلب العـلا ... ودعـوتهم للمجـد والعليـاء
بـالأمس كـانـوا خلتي فأغـاظهم ... طلب الهدى فـاذا بهم أعـدائي
ولقـد عهـدتهم ذوو ود فـلم ... أشـعر بهـم إلا وهـم خصمـائي
الحق بـاعـد بيننـا فـأحلني ... في عـزة وأحلهـم ببـلاء

قالوا شديد طبعه ذو غلظة فأجبتهم لكن على السفهاء
وقد خفضت جناح ذل للذي أضحى أخا تقوى ورب وفاء
أما العصاة فانهم ما شاهدوا مني سوى الإعراض والبغضاء

لقد قرأنا حوالي ٢٨ قصيدة متوسطة الطول تدور في معظمها حول محور واحد هو الدعوة الى الله . ومن هذا المحور تتشعب عدة شعب منها شكوى الزمان وأهله وانكار حالة التهاون التي يراها تسود المجتمع. والزهد في الدنيا وزخرفها الباطل في سبيل الآخرة التي اليها المعاد. ورثاؤه للصالحين من حوله ممن يرى أنهم الأسوة الحسنة لمن يريد أن ينهج بنفسه طريق الرشاد والاستقامة، وقد استأثر هذا الرثاء بربع تلك القصائد تقريباً. على أنه لايأتي الا مصحوباً بعبارات المدح والتمجيد وصيحات الندب والتحريض وما الى ذلك مما كانت الظروف تقتضيه آنذاك. وهذا نموذج من رثائه في قصيدة افتتحها بابداء الرأي فيما ينبغي أن تسير عليه الحياة حتى يتحقق وجود المدينة الفاضلة التي ينادي بها:

إن جاء نصر الله والفتح وبطل التدليس والشطح

وهو في مرثيته يأخذ في ذكر مناقب المرثي كما هو الحال في الشعر العربي القديم الا إنك لاتجده يطيل في شرح تفاصيل الذكريات التي يتذكرها مع فقيده حينما كانا يتصاحبان في الحياة حتى ولو كان هذا الفقيد من أقرب الأقربين اليه. وبهذا يخسر القارىء فائدة التأمل لرسم صورة لواقع الحياة والناس في ذلك العصر وهذه الخسارة تجعله غير مكتف بما قدم اليه في عجالة من خطوط عامة كانت مألوفة ومتداولة بين الشعراء العاديين ولقد تمنينا لو أن الشيخ أوفى هذا الجانب حقه لكي يجعل المتلقي يعيش معه أجواء الحادثة من خلال وقوفه على الوقائع السابقة واللاحقة بواسطة الصياغة الفنية المتقنة.

ويقول السالمي من قصيدة تبلغ ستين بيتاً رثى بها جملة من أحبائه ثم ختمها برثاء أبيه في المقطع الأخير:

لهفي على شيخ نشأت ... بحجره زين الصنائع
رحب الجميل مهذب ... حسن الشمائل والطبائع
طلق المحيا في الشدائد ... صدره في الضيق واسع
يا طالما أسدى عليّ ... من الجمائل والمنافع
كم قد أضر بنفسه ... ليكون لي واق ومانع
كم حرمت عيناه طعم ... الغمض والمغرور هاجع
قد كان بالأولاد برا ... شاكراً لو كنت قاطع
فنعي الي وليتني ... ماكنت ذاك النعي سامع
أبتاه اني كنت في اللقيا ... قبيل الموت طامع
فنأى بك الأجل المقدر ... في بعيدات المواضع
قضت المنية والرضا ... بقضائها أن لست راجع
جاورت بيت الله لما ... صرت عنه غير شاسع
في جدة جاورت حوا ... والمهيمن خير جامع

إنه رثاء صادق مؤثر لايستطيع أن يلصق به تهمة التمحل والتلفيق غير أن طبيعة السالمي ومذهبه ليسا طيعين بالقدر الذي يتيح له المبالغة في الرقة الى حد أبعد من هذا كقول الشاعر:

كأني أراه كلما جئت نحوه ... بعين ضميري قائماً يتلقاني
يكاد اذا مازرته أن يضمني ... ويمسكني عند الوداع بأرداني

ذلك انه اتخذ من التحدي مذهباً في تعامله مع الأحداث على اختلافها وهذا التحدي انعكس بدوره على انتاجه الشعري بما فيه الرثاء ولسنا نحب لحديثنا هذا ، الإيغال في ايجاد الأسباب والمسببات فنقيس نفسية شاعرنا بمقياس الفلاسفة وعلماء النفس ثم نستخلص من هذا القياس

المؤثرات الخارجية والداخلية التي أثرت في حياته.

والسالمي يشعرك في كل بيت ينظمه أنه مؤمن صادق الإيمان راسخ العقيدة لايبتغي لوجود الله دليلاً ولا يشترط على الأنبياء شاهداً أو كفيلاً فدليله فطرته وعقله وشاهده يكمن في شاهد أبي العتاهية الذي يقول:

فيا عجباً كيف يعصي الإله ... أو كيف يجحده جاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على انه واحد

والسالمي ذو الطبيعة المتحمسة المتحفزة وهو الذي يقول:

أرى الأيام لي حرباً ... ودهري كله صعباً
أدانيه فما يزداد ... مني أبداً قرباً
ألاينه ليذعن بالمراد ... فينثني وثباً
أجاذبه وقيت علاً ... فيتعب قوتي جذباً

نماذج من معانيه واقتباساته :

وهناك ظاهرة شعرية في السالمي تسترعي الانتباه فهو ينظم شعره حسبما تقتضي الحاجة الآنية دون أن يوغل في طلب المعاني الغريبة والألفاظ المنتقاة، ذلك انه يوجه مقالا عفوياً خالياً من الاغراب والتأنق بيد انه وكما هي الحال لدى معظم الشعراء خاصة الحماسيون منهم لم يستطع الإفلات والتحرر من هيمنة شعراء هذا الباب أمثال عنترة والمتنبي وأبي تمام ومن شابههم ولقد بدا واضحاً تأثر الشيخ بعنترة وتبنيه للمواقف البطولية التي يدعو اليها لاسيما قول عنترة:

لا تسقني ماء الحياة بذلة ... بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
سكنى الجنان بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أطيب منزل

اقتبسه الشيخ في عدة مواضع منها قوله:

لعمْـرك إن العـز في طلب العـلا وان تك نـاشتك العـدا بـالمخـالب
ولا خير في عيش مشـاب بـذلـة وان يك في روض الجنان الأطـايب

وفي هذه القصيـدة أيضاً يلـوح الشاعـر زهير بن أبي سلمى بأبيـاته التي تبدأ بمن ومن. وقد لاتفوت السالمي فرصة وجود بيت من مثل:

عليّ طـلاب المجـد من مستقـره ولا ذنب لي ان عـارضتني المقـادر

لقد وافق هذا البيـت هوى في نفس الشيخ فاعتقده في شعـره وصاغه صياغة فقهية كانت صبغة الشريعـة والأحكام واضحة فيها حيث جاءت هكذا:

إذا المرء لم يـرضى بـذل معيشـة وقـام الى العليـا ولم يسعـد الجد
فقـد صـار ذا مجد كـريـم وذا عـلا وما فوق وسع النفس لم يلزم العبد

وهذه اشارة الى قوله تعالى ﴿ لايكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ ثم عاد ليؤكد نفس المعنى في بيت مستقل هو:

ومن كان ذا عـزم وبأس وسطوة وقـام ولم يرزق عـلا فله الحمـد

بيـد أن شاعـراً معاصراً هـو عمر أبـو ريشه الـذي جاء بعـد الشيخ السالمي فتناول المعنى بصياغة فنيـة جديدة حيث قال مثنياً على المواقف البطولية:

شرف الـوثبـة أن تـرضي العـلا غلـب الـــــواثـب أم لم يغلـب

أما قصيدة الإمام راشد بن سعيد اليحمدي التي مطلعها:

لمن منـزل قفـر تعفت جـوانبـه وغيره من سـافح القطـر ساكبـه

والتي منها:

ولا خير في خير تـرى الشر بعـده ولا في أخ دبت اليـك عقـاربـه
ولا عيش الا أسمـر اللـون عـاسل وأشقـر في يـوم عبـوس تـلاعبـه

هذه القصيدة يبدو أنها أعجبت الشيخ وتأثر بها فنظم على منوالها قصيدة مشابهة ضمنها بيتين من هذه القصيدة طوعهما لكي يعربا عما أراد الإعراب عنه فأصبحا هكذا:

ولا تتبع قول امرىء كل همه غداء يغدى أو كعوب تلاعبه
فيصبح في ضيم ويمسي بذلة مخافة أن تنأى عليه حبائبه

وأحب هنا أن أنوه بمقطع من القصيدة هو قول الإمام راشد فيها:

ذريني وخلقي يا ابنة القوم إنني رأيت الأذى حربا لمن لا يحاربه
على أنني إما فتى ضمه الثرى وإما فتى حلت بقوم كتائبه
وإما فتى يقضي عليه حمامه وإما فتى تقض الحمام قواضبه
وإما فتى أبكى عيون عداته وإما فتى تبكي عليه أقاربه

هذا المعنى بذاته أوجزه الشاعر عبد الرحيم محمود إيجازاً بليغاً وأبدعه ابداعاً جميلاً وزاد عليه زيادة رائعة في بيتيه الشهيرين:

سأحمل روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدا

ولا أظن أن الشاعر عبد الرحيم محمود قد وقف على القصيدة المذكورة ليقتبس منها وانما هو توارد خواطر.

نعود الى الشيخ والحديث عن أشعاره لنسجل ملاحظة ملفتة للنظر وهو أننا في جميع ما قرأناه من قصائده التي تحدثنا عنها لم نعثر له على عبارة أو إشارة تدل على أنه فاقد للبصر كالشكوى أو التحسر أو التبرم كما يفعله غيره ولا نشك في أنه محتسب في ذلك الأجر والثواب من الله مطبقاً ما جاء في القرآن الكريم على لسان يعقوب عليه السلام.

﴿ إنما أشكو بثي وحزني لله ﴾ صدق الله العظيم، ونود قبل ختام الحديث أن نورد له هذه المقطوعة التي يتضرع فيها الى الله تعالى حاذين

حذوه في الدعاء والتبتل اليه عـز وجل أن يجنبنا وإياكم كل شر في الدنيا والآخرة.

يـــا آخـــذا بالنواصـــي أدرك غـــريق المعـــاصي
وامنـــن عليـــه بلطـــف يفـــضي بـــه لخـــلاصي
واغفـــر لـــه كل ذنـــب يخشـــاه يـــوم القصـــاص
وامنـــن عليـــه بفضـــل ومقعـــد غير قـــاص
يـــا واهـــب الفضـــل جـــزه لطـــائع ولعـــاص
إن لم تـــدارك بلطـــف فليـــس لي مـن منـــاص
أيـن الهـــروب ومـــا مـن قضـــاك تحمـــي الصيـــاصي